

أثر الدين على الاستيطان البشري في منطقة بني ورثيلان قرية منادس نموذجا

The effect of religion on human settlement in the Beni Ourtilane region, the village of Menades, as case of study

كزار محمد أكلي *

جامعة بجاية الجزائر

mohammedakli.kezzar@univ-bejaia.dz

تاريخ الاستلام: 2023/05/30 تاريخ القبول: 2024/12/06

● الملخص:

يتأثر الاستيطان البشري بمختلف أبعاد الثقافة. ويعتبر الدين أحد الأبعاد الثقافية التي تؤثر وتتأثر بمظاهر التوطن البشري. في بحثنا هذا سنحاول تناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل من خلال ما توفر لدينا من معطيات ميدانية وإحصائية عن المستوطنات البشرية بمنطقة بني ورثيلان وبتفصيل أكبر من خلال حالة قرية منادس.

وستتناول الموضوع اعتمادا على خطة عرض تتناول العناصر الأساسية التالية: أولا- مقدمة، ثانيا: علاقة الدين بالمجتمع وال عمران البشري، ثالثا: حوصلة عامة حول تاريخ الدين والمعتقدات في منطقة بني ورثيلان، رابعا: تأثير الدين في تكوين واستمرار المجتمع وال عمران في منطقة بني ورثيلان، خامسا: علاقة الدين بالمجتمع بالعمارة وال عمران من خلال حالة قرية منادس، وأخيرا: خلاصة. وسنعمد في بحثنا على منهجية هجينة بين البحث الوثائقي والميداني.

كلمات مفتاحية: الدين، الإستيطان البشري، العمارة التقليدية، العمارة الإسلامية، بني ورثيلان، منادس.

Abstract:

Human settlement is affected by various cultural dimensions. Religion is no exception. This letter influences and is affected by the manifestations of human settlement. In our research, we try to address this issue in some general through the available field and statistical data on human settlements in the Beni Ourtilane region, and through the case of the village of Menades in particular.

We deal with the topic based on a presentation plan dealing with the following elements: First - an introduction, second: the relationship of religion with society and human urbanization, third: a general account of the history of religiosity and beliefs in the Beni Ourtilane region, fourth: the impact of religion on the formation and continuity of society and urbanization in the same region, Fifth: The relationship of religion with society, architecture and urbanism through the case of the village of Menades, and finally: a summary. In our research, we rely on a hybrid methodology between documentary and research field.

Keywords: Religion, human settlement, traditional architecture, Islamic architecture, Beni Ourtilane, Menades

● مقدمة:

ال عمران البشري كلمة جامعة لكل من المظاهر الاجتماعية والمادية للاستيطان البشري في فترة زمنية معينة وفي رقعة جغرافية محددة أما الدين في الاصطلاح فهو جملة المبادئ التي تدين بها أمة من الأمم اعتقاداً و/أو عملاً. ونظراً لكون المجتمعات البشرية لا تخلو في الغالب من التدين فإن إشكالية العلاقة بين الدين والعمران تظل مطروحة كما تظل في تطور عبر الأزمنة وبأشكال مختلفة من مجتمع لآخر. ففي العصور الوسطى مثلاً في الممالك الاوربية كما هو الحال في الدول الإسلامية يتجلى بوضوح دور الدين في صياغة أشكال المجتمعات البشرية بينما بدأ يتراجع هذا الدور في الدول الاوربية إلى حد ما ابتداء من عصر النهضة تاركاً المجال إلى عوامل أخرى مثل العلوم التجريبية والفلسفات الحديثة التي رافقته. وفي عصر الثورة الصناعية وما بعده وصل تأثير مخرجات عصر النهضة في أوروبا من علوم ونظريات إلى البلاد الأخرى عن طريق الاستعمار والتبادلات التجارية.

يهدف هذا العمل إلى تبيان أثر الدين على الاستيطان البشري من خلال حالة منطقة بني ورتلان الواقعة في أقصى شمال غرب ولاية سطيف بالجزائر. وهذا من خلال مقارنة تاريخية وميدانية. وكي يتم إبراز جوانب الموضوع قمنا باختيار قرية منادس كعينة لملاحظة ووصف الظاهرة المدروسة.

وسننتهج في عملنا أسلوب الانتقال من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى الأخص بهدف الايضاح والتبسيط. وإذا ما علما أن من وظيفة الدين¹ الأساسية هي تنظيم علاقات الانسان بنفسه وبينه والآخرين وبينه والله فان أثره سيظهر جلياً في هذه المستويات الثلاث من خلال أبعاد مادية و غير مادية مختلفة.

1- علاقة الدين بالمجتمع والتوطن البشري:

بعيدا عن أي توجه نظري نرى أن تتبع أثر الدين على التوطن البشري يمكن القيام به من خلال عدة أوجه لعل أهمها ما يلي:

- تأثير الدين على الاجتماع البشري من خلال تنظيم العلاقة بين البشر وبين البشر والله وبين الكون وبين الانسان ونفسه.
- تأثير الدين على الاستيطان البشري من خلال تأثير الشخصيات الدينية على المجتمعات واستقرارها.
- التأثير المباشر للدين على الجوانب المادية من خلال ما يقتضيه من تشيد للمباني الدينية ومن خلال المبادئ والتعاليم التي يحددها لتنظيم التجمعات العمرانية ومن خلال الأسس والمبادئ التي تحكم تنظيم الفضاءات السكنية.

وقد يلاحظ أن هذه الأوجه قد تتداخل فيما بينها في بعض مضامينها لكن يمكن اعتبارها مدخلا أوليا لدراسة الموضوع بشيء من التبسيط تمهيدا للغوص في تفاصيله من خلال اعتبار الابعاد المختلفة لكل من الدين والعمران البشري. وسنحاول فيما يلي التطرق إلى أهم حيثيات تلك المظاهر.

¹ في هذا البحث وقبل الحديث عن أي دين بعينه نأخذ بالتعريف التالي للدين وهو أن يقال: "الدين هو اعتقاد قداسة ذات، ومجموعة السلوك الذي يدل على الخضوع لتلك الذات دلاً وحباً، رغبة ورهبة. فهذا التعريف فيه شمول للمعبود، سواء كان معبوداً حقاً - وهو الله عز وجل- أو معبوداً باطلاً، وهو ما سوى الله عز وجل. كما يشمل أيضاً العبادات التي يتعبد الناس بها لمعبوداتهم، سواء كانت سماوية (...)، أو لها أصل سماوي (...)، أو كانت وضعية غير سماوية الأصل (...)، وعموم الوثنيات. كما يبرز التعريف حال العابد؛ إذ لابد أن يكون العابد متلبساً بالخضوع دلاً وحباً للمعبود حال العبادة؛ إذ إن ذلك أهم معاني العبادة. ويبين التعريف أيضاً هدف العابد من العبادة، وهو إما رغبة أو رهبة، أو رغبة ورهبة معاً؛ لأن ذلك هو مطلب بني آدم من العبادة." (Islamway.net, 2023)

1-1 تأثير الدين على الاجتماع البشري من خلال تنظيم العلاقة بين البشر وبين البشر والله والكون ومن خلال تنظيم علاقة الانسان بنفسه.

عادة ما يتألف الدين من نسق متكامل من التعاليم المتكونة من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق التي يطبقها أفراد المجتمع في الحياة اليومية. وتتجسد هذه التعاليم بأشكال مادية وغير مادية. والعلاقات بين البشر ذات أوجه متعددة فمنها الاجتماعية كالزواج والطلاق ومنها الاقتصادية كالبيع والشراء ومنها السياسية كعلاقة الحكام بالمحكومين ومنها ذات الطابع القضائي ومنها ذات الطابع العسكري وغيرها كثير². أما فيما يخص العلاقة بين البشر والله فإنها تتجلى في الأوامر والنواهي ذات الطابع التعبدية الخالص مثل العقائد والعبادات³. وفيما يخص علاقة الانسان بالكون⁴ فيمكن أن تتجلى في الأوامر والنواهي المتعلقة بالعلاقة مع الحيوانات ومع الجماد والطبيعة ككل. ويظهر أثر الدين في علاقة الانسان بنفسه من خلال مختلف التعاليم والقيم التي تشبع فراغه الروحي وتحرره من حدود الماديات وتنمي وعيه بموقعه وقيمه في الوجود إضافة إلى تقوية الالتزام بالتصرفات السوية.

1-2 تأثير الدين على الاستيطان البشري من خلال تأثير الشخصيات الدينية على المجتمعات واستقرارها.

تأثير الشخصيات الدينية في الاستيطان البشري يظهر في التاريخ البشري من خلال دور الرسل والمبشرين ودور الأئمة والعلماء الحاملين للتعاليم الدينية. حيث يجتمع حولهم الناس ويؤسسون وفق تلك التعاليم مجتمعات تنتظم في قرى وحضائر وأمصار. وقد تلعب الشخصيات الدينية أدواراً مهمة في تثبيت الأمن والاستقرار عند نشوب النزاعات والحروب. كما يمكن أن يكون هؤلاء سبباً في نشوب صراعات فكرية دينية تتطور فيما بعد إلى حروب ونزاعات مسلحة.

1-3 التأثير المباشر للدين على الجوانب المادية للعمران من خلال ما يقتضيه من تشييد للمباني الدينية ومن خلال المبادئ والتعاليم التي يحددها لتنظيم التجمعات العمرانية.

ويتبين هذا التأثير من خلال دراسة تاريخ العمارة والعمران في مختلف الحضارات والأقاليم. حيث لعب الدين إلى جانب عوامل أخرى دوراً هاماً في صياغة أنماط العمران والعمارة. وبحكم تخصص الباحث في هذين المجالين فإنه في هذا العمل سيحاول التفصيل في هذا العنصر والعنصر الذي قبله بحكم الارتباط الوثيق بينهما.

2- حوصلة عامة حول تاريخ التدين والمعتقدات في منطقة بني ورثيلان:

تمثل منطقة بني ورثيلان من الناحية الجغرافية جزءاً بسيطاً من المجال الجبلي التلي الشرقي الجزائري، من الناحية الإدارية المنطقة تقع ضمن حدود دائرة تحمل الاسم ذاته. ومن الناحية الإقليمية المنطقة تقع أقصى الجنوب الغربي لمنطقة القبائل الصغرى حيث تبعد عن مدينة بجاية بحوالي 114 كلم وعن مدينة سطيف بحوالي 87 كلم. وهي امتداد لكل من السلسلتين الجبليتين الببيان وبابور حيث تتميز

² في الإسلام أجملت في كتب الفقه فيما يسمى بفقه المعاملات.

³ في الإسلام هنالك من العبادات ما يدخل في علاقة البشر مع الله وفي نفس الوقت في علاقة البشر بالبشر كالزكاة والميراث.

⁴ حسب أحمد علي الزاملي (1) يعتبر التدين استجابة للضرورات العقلية والدوافع الداخلية "الفطرية" التي يجيدها الإنسان في نفسه، تجاه الشعور بالحاجة إلى الخالق المدبر، بغض النظر عن تفسير هذا

الخالق (...) ~ (1) أحمد علي الزاملي، النفس البشرية والتدين - دراسة عقديّة. مجلة المعيار، 25 (56)، ص222، تم تصفحه على الرابط التالي:

بشدة الانحدار والالتواء وتتكون من تتابع تلال وهضبات يتخللها مجاري مائية وانحدارات والتواءات وانحيازات صخرية. وهي ذات غطاء نباتي متوسط الكثافة ويسودها مناخ قاري شبه رطب يتميز بشتاء بارد ومطير وصيف حار وجاف. أما عن استقرار الانسان في المنطقة فهو ضارب في القدم حيث تدل الآثار التاريخية على استقرار الانسان البدائي فيها ثم الرومان إلى جانب السكان المحليين. ويتمثل التوطن البشري السائد في المنطقة قبل وإبان الحقبة الاستعمارية الفرنسية أساسا في القرى والمداشر القبائلية وبعض الثكنات والمرافق المشيدة من قبل سلطات الاحتلال وبعد الاستقلال تطور الوضع وتوسعت القرى وأصبح البعض منها تجمعات سكانية كبيرة بينما فقدت أخرى كل أو جل سكانها وأصبحت جراء ذلك أطلالا وتراثا شاهدا على تاريخ المنطقة⁵.

ولا يختلف كثيرا مسار التدين في بني ورتلان عن المسار العام الانتشار واستقرار الاديان في منطقة شمال إفريقيا ككل حيث عرفت هذه الأخيرة بادئ الامر الديانات الوثنية المختلفة بحكم الطابع البدائي السائد وبعدها اعتنقت بعض القبائل الامازغية الديانة اليهودية نتيجة لاحتكاكها بالجماعات اليهودية القادمة من بلاد الشام مع بقاء غالبية القبائل على الوثنية. وحسب ابن خلدون " كان دينهم⁶ دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالشرق والمغرب، في بعض الأحيان يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم (...). " وهو ما يسمح لنا بافتراض اعتناق سكان المنطقة للديانات الوثنية الفينيقية ثم الرومانية إلى جانب ما توارثوه من معتقدات. وبعدها وبحكم خضوع المنطقة للإمبراطورية الرومانية حين تبنيها للديانة المسيحية سنة 313م فقد حطت هذه الأخيرة رحالها في المنطقة وخاصة في المدن والمناطق التي عرفت رومنة السكان المحليين. وبعد كل ما سبق جاء الفتح الإسلامي حاملا معه الديانة الإسلامية سنة 50 للهجرة لتبدئ حقبة الانتشار التدريجي للإسلام. في منطقة بني ورتلان تدل بعض المصادر التاريخية والآثار وكذا بعض العادات اليومية التي تزال منتشرة على تلك المراحل وما تركتها من ترسبات في ثقافة المجتمع المحلي. فيما يلي واعتمادا على أعمال بجوجو محمد أسليمان⁷ والملاحظات الميدانية سنحاول إعطاء صورة مختصرة للمشهد الديني في المنطقة من العصور القديمة إلى يومنا هذا.

2-1 الديانات والطقوس الوثنية:

يفترض أن المعتقدات الوثنية هي السائدة⁸ في المنطقة قبل كل من اليهودية والمسيحية. حيث تدل بعض التقاليد والطقوس التي ضل بعض السكان يمارسونها إلى وقت ليس ببعيد على ذلك ومنها تقديس مظاهر الطبيعة مثل الأشجار⁹ والمغارات¹⁰ وكذا الاعتقاد بأرواح تحرس المنازل يطلق عليها "أعساس وخام" و "أعساس نتالا" و أرواح شريرة تسكن بعض الأماكن بعينها يسمونها "أروحاني". كما نسجت

⁵ كزار محمد أكلي، التراث المعماري بمنطقة بني ورتلان بين المقومات المعتمدة وضعف الاستغلال. مجلة منبر التراث الاثري، 2022 م، ص-ص: 158-159.

⁶ أي قبل وصول الفتوحات الإسلامية

⁷ وهي كالتالي: - محمد أسليمان بجوجو، تاريخ شمال سطيف من العصور القديمة إلى نهاية الثورة التحريرية، ACA، 2020، 345 ص.

- محمد أسليمان بجوجو، نافذة على التراث الثقافي لمنطقة بني ورتلان، ACA، 2022، 282 ص

⁸ وهذا لا ينفي احتمال اعتناق سكان المنطقة لمعتقدات تقوم على التوحيد قبل أو أثناء ذلك.

⁹ ذكر بجوجو محمد أسليمان ~ (1) أسماء تسعة أشجار بمنطقة بني ورتلان ظل سكان المنطقة يقدسونها إلى وقت ليس ببعيد ~ (1) بجوجو محمد أسليمان، تاريخ شمال سطيف من العصور القديمة إلى نهاية الثورة التحريرية، ص-ص: 22-23.

¹⁰ حسب بجوجو محمد أسليمان ~ (2) تعد ثيفلي (نقب) جبل أزرو من الأماكن المقدسة عند سكان بني ورتلان وهو مغارة ذات فتحتين اكتسب نوع من القداسة منذ القدم وهي ما يظهر حسبه في عبارة «إما ثكليث وذرو» التي سمعتها شخصيا متداولة بين بعض السكان والتي تعني "أمي أمة أزرو أو أمي حارسة وخادمة الجبل" حيث يحلف بعض السكان بالقول "وحق بما ثكليث وذرو" أي " بحق أمي أمة الجبل. وهي عبارة توحى بنوع من القداسة يكنها سكان المنطقة لمغارة جبل أزرو

~ (2) بجوجو محمد أسليمان، تاريخ شمال سطيف من العصور القديمة إلى نهاية الثورة التحريرية، ص-ص: 14-16.

مخيلة السكان عدة أساطير حول تشكل بعض مظاهر الطبيعة من صخور وانجرافات للتربة. وملاحظة عامة فإن هذه المعتقدات كغيرها من الجوانب الثقافية التقليدية سائرة في طريق الاندثار تدريجاً ولعل ذلك يرجع إلى تراجع نسبة الامة بين سكان المنطقة.

2-2 الديانة اليهودية:

توجد بعض المؤشرات على تواجد العنصر اليهودي في المنطقة في الأزمنة السابقة والتي نذكر منها تسمية لمكان بـ "هضبة اليهودية" باللغة المحلية "ثاقرث نتوذيث"¹¹ ، واستعمال النجمة السداسية في الأبواب الخشبية لبعض المنازل التقليدية في قرية الشرفة وادا ببلدية عين لقراج ، انظر الوثيقة رقم 01. أما فيما يخص ممارسة الشعائر الدينية فلا أثر يذكر حسب حدود علمنا. وفي خضم بحثنا حصلنا على شهادة شفاهية مفادها أن عدة عوائل يهودية استقرت في المنطقة في كل من قرية أخريب وفي بني شبانة وبني جاماتي وقد ذكر صاحب الشهادة¹² أن واحدة من تلك العوائل امتهنت صناعة الحلي الفضي¹³. وذكر كذلك أن بعض تلك العوائل قد اعتنقت الديانة الإسلامية. ويبقى هذا الجانب من تاريخ التدين في المنطقة مفتوحاً للبحث والدراسة.

وثيقة 01: صورة لنجمة داود وجدت على بعض الأبواب التقليدية بقرية الشرفة وادا ببلدية عين لقراج



المصدر: صفحة قرية الشرفة وادا، تم الحصول عليها من طرف السيد وزير عبد الحليم، سنة 2023م.

2-3 الديانة المسيحية:

يرجح دخول الديانة المسيحية إلى المنطقة إلى الفترة الرومانية¹⁴. والشواهد المادية المتوفرة في المنطقة تكاد تجزم كون المسيحية انتشرت في المنطقة خلال حقبة الاحتلال الروماني. فبالإضافة إلى أثار كنيسة المعبودة (الوثيقة 02) الواقعة بالمكان المسمى إغرمان ببلدية عين لقراج، ذكر بجوجو محمد أوسليمان¹⁵ عدة مباني أثرية يُرجح أن تكون كذلك كنائس تعود للحقبة الرمانية أو البيزنطية وهي "الجامع نبربر" بقرية أيث موسى ببلدية بني ورتلان و"الجامع أورومي" على قمة جبل زقاغ القريب من المنطقة. ومن بين التفاصيل المهمة التي ذكرها بجوجو: كون المنطقة شهدت خلال القرن الخامس للميلاد حرباً دينية بين المذهب الكاثوليكي المتبني من قبل روما والمذهب الدوناتي المنافس له

¹¹ وهي هضبة تشرف على منطقة ثاسونت نسبث بلدية عين لقراج

¹² وهو الأستاذ لعريش عبد الله من قرية إري الكاف وقد أدلى بشهادته بتاريخ 2023/04/8م.

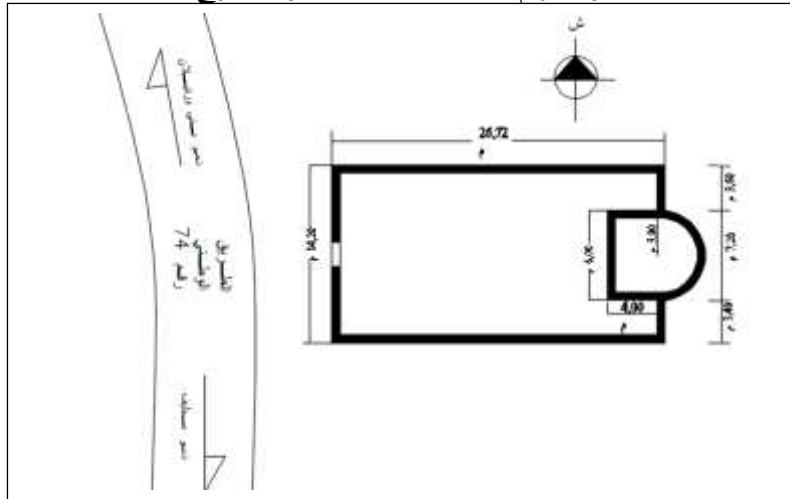
¹³ وهي حسب الشهادة عائلة ميردوش التي استقرت في قرية أخريب في غبولة ثم هاجرت إلى واد أميزور لتحترف هنالك حرفة جمع التين المجفف وتصديره عبر ميناء بجاية.

¹⁴ يوجد في المنطقة حوالي 10 مواقع أثرية تعود إلى الفترة الرومانية (بجوجو ، 2020، صفحة 19). وللعلم فإن الإمبراطورية الرومانية تبنت الديانة المسيحية كديانة رسمية ابتداء من سنة 313 م.

¹⁵ بجوجو محمد أوسليمان، المرجع السابق، ص: 24-27.

وهو ما أثر سلبا على عمران المنطقة خلال تلك الفترة. ولعل انحسار المسيحية بدأ مع حملة الوندال على الشمال الافريقي حيث قام الملك هونريك بطرد الأساقفة الكاثوليك ومن بينهم الاسقف فاديوس ممثل الناحية¹⁶ وبمجيئ الإسلام ودخول معظم السكان فيه انحسر التواجد المسيحي تدريجيا . وبعد حوالي 13 قرن عادت المسيحية إلى شمال إفريقيا مع الغزو الفرنسي للجزائر غير أن منطقة بني ورتلان شهدت فقط نشاطا محدودا لبعض المبشرين ولم تعرف بناء مراكز تبشيرية بعينها¹⁷.

الوثيقة رقم 02: مخطط كنيسة المعبودة بالقراج



المصدر: الباحث، استنادا لرفع معماري قام به سنة 2004م

2-4 الديانة الإسلامية:

لا يعرف تحديدا تاريخ دخول الإسلام إلى منطقة بني ورتلان غير أنه يُحتمل أن يكون خلال فترة الفتح للمغرب الكبير (670م-711م) وأن ذلك حدث بشكل تدريجي حيث تخلّى سكان المنطقة تدريجيا عن معتقداتهم ودياناتهم السابقة بعد اقتناعهم بالدين الجديد. ولا شك أن المنطقة شهدت بعدها تأثيرات تعاقب مختلف الدول الإسلامية التي حكمت في المغرب الأوسط¹⁸ التي امتدت إلى غاية القرن السادس عشر للميلاد وبعد ها تأثير الخلافة العثمانية التي امتدت من 1509 م إلى غاية 1932 تاريخ غزو الفرنسيين للجزائر حيث كان أول دخول لهم إلى المنطقة سنة 1842م في حملة استكشافية وعسكرية لمنطقة القبائل وثبتت من قبل إرنست كاريت¹⁹.

وحاليا يعد الإسلام الدين السائد في منطقة بني ورتلان ويظهر ذلك اجتماعيا من خلال الممارسة النسبية لمختلف العبادات والشعائر الإسلامية وعمرانيا من خلال انتشار المساجد²⁰ في القرى والتجمعات العمرانية المركزية إضافة إلى عدة زوايا ومدارس قرآنية²¹. كما يظهر تأثير الدين الإسلامي إلى حد ما في عمارة القرى والمساكن وهو ما سنحاول تناوله بشيء من التفصيل في العنصرين اللاحقين.

¹⁶ Toulotte Monseigneur , Geographie de l'afrique crétienne. Montreuil-sur-Mer: Imprimerie Notre-Dame de Près, 1894, p-p : 221-22

¹⁷ ججقيق عبد الرزاق، التراث الثقافي لمنطقة بني ورتلان، معالم وأعلام، طبعة ثانية، دار المجدد، ص-ص: 23-25.

¹⁸ بداية بالدولة الرستمية (776-909م) ثم الدولة الفاطمية (909-1171م) وبعدها الدولة الزييرية (971-1152م) ثم الدولة الحمادية (1014 - 1152م) ثم الدولة الموحدية (1121م - 1269م) ثم الدول الثلاث الحفصية (1229-1573م) و الزيانية (1235م و 1554م) و المرينية (1195-1465م)

¹⁹ Carette, Ernest, Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840, 1841, 1842, étude de la Kabylie proprement dite, Tome IV, imprimerie Royale, 1848, P-P. 380-402.

²⁰ عدد المساجد المنتشرة في المنطقة حسب إحصائيات 2017 لمديرية البرجة ومتابعة الميزانية هو 83.

²¹ أحصيت منها زاوية واحدة سنة 2017 من قبل مديرية البرجة ومتابعة الميزانية.

3- تأثير الدين في تكوين واستمرار المجتمع والعمران في منطقة بني ورثيلان:

في غياب الكثير من المعطيات والمصادر التاريخية حول الموضوع والمتعلقة بالفترة القديمة وفترة العصور الوسطى فإننا سنحاول تناول تأثير الدين على المجتمع والعمران في منطقة بني ورثيلان من خلال تأثير الديانة الإسلامية فقط وهذا في فترة الحكم العثماني وفترة الاستعمار الفرنسي (وفترة ما بعد الاستقلال إلى يومنا هذا).

قد مر الاستيطان البشري في المنطقة خلال هذه الفترة بمراحل عدة تميزت أثناء الحكم العثماني²² في كون سكان المنطقة قد انتظموا في عدة قبائل (أيث براهم، أيث شبانة، إغبولين، أيث جماتي، أيث موحلي... إلخ.)، كل منها استقرت في جزء معين من إقليم المنطقة وكانت القبيلة تضم مجموعة من قرى التي بدورها تضم مجموعة من العوائل الموسعة. وتتكون كل قرية من فضاء عمراني يضم إطارها السكني والمجال الزراعي والرعوي الذي تستغله. حيث يسهر على تسير القرية مجلس عقلاء يسمى ثاجمعت. وقد استمر هذا التنظيم المحلي خلال الفترات الأولى من الاحتلال الفرنسي إلى غاية اندلاع ثورة المقراني سنة 1871 م أين شارك سكان المنطقة بشكل مباشر وتعرضوا جراء ذلك إلى مصادرة أجزاء من أراضيهم الخصبة خاصة.

ومع استصدار كل من قانون وارنيه Warnier (سنة 1873م) وقانون السيناتيس كنسلت (سنة 1863م)²³ أصبح لكل فرد من القبيلة إمكانية بيع أرض للمستوطنين الأجانب وهو ما زعزع استقرار النظام الاجتماعي والاقتصادي التقليدي القائم على الملكية القبلية للأراضي. ومع احتكاك السكان المحليين بالأجانب من المعمرين ومن خلال هجرتهم للعمل في الحواضر الجزائرية والفرنسية حدث لهم أن اكتسبوا العديد من الخصائص الثقافية الأوروبية من زي ولغة وسلوكيات وعادوا بها إلى الوسط المحلي وأثروا بها على ذويهم من أهل القرى واستمر ذلك طيلة فترة الاحتلال الفرنسي بل إلى غاية ما بعد الاستقلال حيث استمر احتكاك القرويين بالعالم الخارجي من خلال المهاجرين إلى الحواضر الفرنسية والجزائرية، حيث كانوا يعودون برؤوس أموال كثيرا ما يستثمرونها في بناء مساكن جديدة عادة ما تأخذ أشكال وأنماط غير الأنماط التقليدية المتوارثة عن الأجداد.

خلال السنين الأخيرة من الاستعمار شهدت المنطقة الثورة التحريرية وما تخللها من ويلات ودمار للقرى وتشريد للسكان. حيث تعرض سكان الكثير من القرى لعمليات التهجير القسرية إلى قرى أخرى بهدف فصلهم عن الثوار، كما تعرضت مصادر عيشهم من مواشي وغلال إلى المصادرة والحرق وتعرضت بعض القرى مثل "مزين وأولموثن" للقصف والتدمير. وكانت تلك الفترة مرحلة مريرة لم يشهد لها مثيل تكلفت بالاستقلال.

وفتح استقلال البلاد ككل والمنطقة بشكل خاص على مراحل أخرى تخللتها جهود تنموية ذاتية (من قبل السكان) وأخرى مركزية (من قبل الدولة) أفضت إلى تحولات اجتماعية ومجالية متتالية لعل أهمها اجتماعيا بروز جمعيات محلية إلى جانب مجلس القرية أو لتقوم

²² أشار عمار العبداني Amar Laidani في أطروحته الموسومة «Le droit coutumier Kabyle pendant la colonisation française» إلى أن النظام القبلي أو نظام العروش الذي أنظم وفقه سكان منطقة القبائل تمت جذوره إلى العصور القديمة وقبل الغزو الروماني لشمال إفريقيا. وبين من خلال بعض المصادر التاريخية أن هذا النظام ظل يتطور إلى أخذ شكله النهائي خلال الفترة الرومانية حيث أصبح عروش منطقة القبائل تتمتع بقدر واسع من الاستقلالية في تسير شؤونها المحلية ومن بين مظاهر هذه الاستقلالية ما ذكره عن كون هذه العروش استحدثت قوانين عرفية تسير بها بعض جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية. إلى جانب ما كان يطبق من أحكام دينية تتعلق بالحياة الدينية للسكان~ (1).

~ (1) Amar Laidani, le droit coutumier kabyle pendant la colonisation française, Thèse en cotutelle Doctorat en droit, université de université Laval Québec, Canada et Université Montpellier I Montpellier, France, 2020, p-p: 30-36.

²³ Saidouni Maouia, Eléments d'introduction à l'urbanisme, Ed CASBAH, Alger, 2000, P174.

مقامه إلى جانب تحول النمط العائلي السائد من العائلة الموسعة إلى الأسرة وتحول النمط الاقتصادي السائد من الفلاحي إلى نمط يقوم أساسا على الخدمات وقطاع البناء. أما على المستوى الإقليمي فقد استحدثت المجالس البلدية المحلية إضافة إلى العديد من الأجهزة والمؤسسات التي تسهر على تسيير وتقديم الخدمات المختلفة للمواطنين من سكان المنطقة.

وتحكمت في مراحل التحول والتشكل الاجتماعي والعمراني السابقة عوامل عديدة منها السياسية ومنها الاقتصادية ومنها الثقافية وهي عوامل مترابطة بشكل وثيق يصعب الفصل فيما بينها غير أننا فيما يلي سنحاول تتبع تأثير الدين كأحد العوامل الثقافية المحورية في تلك العملية.

3-1 أثر الدين الإسلامي على المجتمع وال عمران في منطقة بني ورثيلان خلال الفترة العثمانية:

كتب أبو القاسم سعد الله واصفا الحالة العامة للثقافة الجزائرية خلال العهد العثماني قائلاً "ومن جهة أخرى فإن دارس الثقافة الجزائرية خلال العهد العثماني يدرك، مهما تغالى في إبراز الخصوصيات، أنه أمام ثقافة هي في صميمها الثقافة العربية الإسلامية المشترك والشائعة عندئذ في العالم العربي الإسلامي، فمناهج التعليم كانت واحدة، وحدود الأفكار واحدة ومعاهد التعليم التي ارتادها علماء الجزائر متشابهة و الطرق الصوفية التي انتموا إليها هي هي سواء أخذوها في المغرب الأقصى أو في العراق"²⁴

ومنطقة بني ورتلان مع كونها جزء من منطقة القبائل التي يتكلم معظم سكانها اللهجة القبائلية ينطبق عليها إلى حد ما ذهب إليه أبو القاسم سعد الله حيث نجد فيها إضافة إلى التقاليد والأعراف القبائلية الكثير من جوانب الثقافة الإسلامية. حيث عرفت المنطقة إنشاء عدة زوايا لتعليم تعاليم الدين الإسلامي واللغة العربية من قبل عوائل المرابطين نذكر منها زاوية قرية أقلميم ببني جماتي وزاوية قرية مزين ببني ورتلان وزاوية قرية فريجة التي استمرت في عملها حتى ما بعد استقلال الجزائر.

وساهمت هذه الزوايا وغيرها في المناطق المجاورة في إعداد أئمة المساجد الذين أشرفوا على التأطير الديني لسكان القرى كما ساهموا إلى جانب مجالس القرى في تأطير الجوانب الاجتماعية من خلال المشورة التي يقدمونها لتلك المجالس²⁵ ولل سكان بصفة عامة.

خلال فترة الحكم العثماني عرفت عائلات الاشراف والمرابطون دورا مهما في المنطقة حيث شكلت عاملا استثنائيا نافذا يُرجع إليها للفصل في الخلافات التي قد تنشأ بين الافراد وبين القرى وبين القبائل وهو ما أشار إليه الحسين الورثيلاني في الرحلة²⁶ وهذا بحكم ما تتملك من مؤهلات علمية وتقدير في الوسط المحلي. ولا شك أنه من بين الخلافات التي قد تنشأ بين الافراد والجماعات ما له علاقة بالبنين والعقارات وما له صلة بتقسيم المياه والأراضي. وتجدر الإشارة أن بعض الحكام الاتراك قد اعتمدوا على تلك العوائل لبسط نفوذهم على المناطق البعيدة عن المدن المركزية على تلك نظرا لما تمتلكه من سمعة ومكانة لدى السكان المحليين²⁷.

²⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 1998، بيروت. ص 25.

²⁵ في الجزء الثاني من كتابهما الموسوم «Les kabyles et les coutumes kabyles» (1) ~الصفحتين 36 و 37 أوضح كل من هانوتو و لاترنو Hanoteau et Letourneux دور الامام أو مرابط القرية وبيننا أنه إلى جانب دوره الديني المحض كان يشغل منصب كاتب مجلس القرية "تاجمعت".

~ (1) Hanotaux. A et Letourneux. A, Les kabyles et les coutumes Kabyles, Paris, Augustin Challamel, éditeur, 1893, p-p : 36-37

²⁶ - الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والخبار، مطبعة بيزر مونتانه الشرقية، الجزائر، 1908م. ص 08.

²⁷ - احمد ظريف، قراءة في الرحلة، دار هومه، 2005، ص-ص 45-46.

ليس لدينا فكرة دقيقة عن تاريخ الاستقرار البشري بالمنطقة خلال فترة الحكم العثماني لكن يمكن أن نفترض اعتمادا على بعض المعطيات أهم القرى التي كانت قائمة خلال تلك الفترة أو خلال جزء منها. فمثلا قرى كل من أخريب وثيلا توين وبني حافظ وإغيل علي ومزين (....) يمكن اعتبارها كانت قائمة خلال تلك الفترة بحكم حجمها بحكم ذكر البعض منها في من قبل أ.كاريت سنة 1848 وهو تاريخ غير بعيد عن الفترة العثمانية²⁸.

وباعتبار أن نمط الاستيطان البشري في المنطقة، خلال تلك الفترة هو القرى القبائلية بطابعها التقليدي فإننا سنحاول فيما يلي من هذا المقال توضيح علاقة الدين الإسلامي بهذا النمط من حيث العمارة. وستتبع في ذلك منهجية بسيطة إلى حد ما تتمثل في المقارنة بين خصائص ومكونات القرية والمسكن القبائليين التقليديين مع خصائص ومكونات المدينة الإسلامية حتى نرى مدى انطباق خصائصها على العمارة المحلية التقليدية. وهذا الانطباق سيكون بمثابة المؤشر على أثر الدين على العمارة التقليدية المحلية.

وقبل الخوض في هذا المنحى يجدر بنا التعريف بالعمارة القروية القبائلية التقليدية وبخصائصها على مستوى القرية وعلى مستوى المسكن²⁹ ثم التعريف بخصائص العمارة الإسلامية و مكونات المدينة الإسلامية.

1.1.3 التعريف بمكونات القرية القبائلية التقليدية وبأهم خصائصها العمرانية والمعمارية:

أشرنا في أبحاث سابقة³⁰ أن القرى التقليدية القبائلية في معظمها تتميز ببنية عمرانية خاصة انظر مخطط الكتلة لقرية شلحاب الوثيقة 03 ، بحيث تربط بين العناصر المشكلة لها علاقات شكلية ووظيفية تكاملية فالقرية الواحدة لا تساوي فقط مجموع الأجزاء المشكلة لها بل هي وحدة مستقلة تخضع كل أجزائها لمبدأين أساسيين هما³¹:

– أولوية العلاقات بين الأجزاء قبل الأجزاء ذاتها.

– شبكة العلاقات تتميز بهرارية معينة ويمكن تجزئتها إلى عناصر مترابطة فيما بينها ومترابطة مع الكل الذي تشكله.

القرية هي الوحدة السياسية والإدارية الأساسية في المجتمع القبائلي التقليدي، تتميز بحيز مجالي معين، تتموضع في الغالب على قمة جبل أو هضبة وقد تتموضع على سفح الجبل أو أحد جوانبه.

²⁸ Carette, Ernest Exploration scientifique de l'Algérie, Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840, 1841, 1842, étude de la Kabylie proprement dite, Tome IV, imprimerie Royale, 1848, P-P. 380-402.

²⁹ سنعمد في ذلك على أبحاثنا السابقة التي تناولنا فيها المجال الريفي القبائلي والقرية القبائلية والسكن القبائلي بكثير من التفصيل ولعل أهم تلك الاعمال. مذكرة الماجستير التي تم مناقشتها في عام 2008 وهي بعنوان "التحولات المجالية في القرى الجبلية القبائلية، حالة منطقة بني ورتلان في أقصى شمال غرب ولاية سطيف".

³⁰ كزار، محمد أكلي. (2008) "التحولات المجالية في القرى الجبلية القبائلية، حالة منطقة بني ورتلان في أقصى شمال غرب ولاية سطيف". رسالة ماجستير في العمران. جامعة منتوري بقسنطينة، كلية علوم الأرض والتهيئة العمرانية، قسم الهندسة المعمارية والعمران، ص-ص 165-170.

³¹ KACI, Mebarek. Contribution à protection de l'architecture rurale traditionnelle, cas d'un village antique de Taksebt en Kabylie maritime, mémoire de magistère en urbanisme Alger, EPAU : 2001. P37.

إن تأثير الموقع الجغرافي على البنية العمرانية للقرية سهل الملاحظة، فالتوطن على قمم أو جوانب الجبل يحد من إمكانية توسع القرية مما يحتم على السكان بناء مساكنهم مع مراعاة اقتصاد العقار من جهة والاستجابة للاحتياجات الوظيفية من جهة أخرى. شكل القرية الواقعة على جبل عادة ما يكون دائري (حول القمة) والمساكن المنغلقة عن الخارج تشكل مجمعة حصن منيع يتم من خلاله مراقبة الأراضي المزروعة وحراستها وكذا مراقبة أي خطر خارجي في حالات الطوارئ والصراع مع القبائل الأخرى. وتوسع منازل القرية عادة ما يكون أفقي بتضاعف المساكن داخل الملكية العائلية (قطعة الأرض) وهو ما يؤدي مع مرور الوقت إلى نشوء مسالك غير نافذة داخل القرية، وتتوسع القرية عموديا كذلك لكن وبحكم محدودية التقنيات والإمكانات يطغى عليها التوسع الأفقي؛ وتيرة التوسع في القرية التقليدية بطيئة جدا وذلك راجع إلى النسبة الكبيرة للوفيات في سن الطفولة. وبعد تحسن الظروف المعيشية والصحية للسكان؛ لم يعد المنزل التقليدي يستوعب ازدياد عدد أفراد العائلة ومع مرور الوقت وإدخال تقنيات البناء الجديدة انتشر التوسع العمودي للقرى في مناطق عديدة وتعقدت حالتها بالاحتفاظ بالازدحام³².

أ- المكونات العمرانية للقرية القبائلية التقليدية:

مورفولوجيا (شكليا) وحسب التسلسل التدريجي من الخارج إلى الداخل يمكن تمييز المكونات التالية في القرية القبائلية: ثاجماث، أزنيق، المسلك بدون منفذ (Impasse) ، أسقيف، الحارة، أحام، بالإضافة إلى هذه المكونات نجد المصلى أو المسجد، المقبرة، العين (ثالا)، ساحة الدرس (أنار)، وأخيرا نجد حقول الخضر (حدائق)، وهي كلها توابع أساسية خاصة بكل قرية³³.

أ-1 ثاجماث (Thadjmath): اجتماعيا هي مؤسسة قروية تسهر على تطبيق القوانين العرفية والفصل في النزاعات التي قد تنشأ بين أفراد القرية كما تشرف على تسيير الموارد والمرافق المشتركة بين السكان، كل فرد منها له أدوار معينة ويترأسها الأمين الذي يُختار بالاتفاق دون اللجوء إلى التصويت.

عمرانيا ثاجماث هي الهيكل أو المبنى أو الفضاء الذي تعقد فيه هذه الهيئة اجتماعاتها، تتموضع عند مدخل القرية أو خارجها، من هذا المكان يمكن لسكان القرية مراقبة الغرباء واستقبالهم وتحديد إمكانية دخولهم إلى القرية من عدمها، معماريا ثاجماث يمكن أن تأخذ عدة أشكال منها: المبنى المغطى والمنفصل، الممر المغطى، مكان مهيا بجانب المسجد.

أ-2 الرقاق (أزنيق La ruelle): يحتل الرقاق دور محوري بين العناصر المكونة للقرية، فهو الفضاء القروي الداخلي الأول بالنسبة إلى الخارج يربط بين داخل القرية وخارجها كما أنه يربط بين الأجزاء الداخلية، فقط سكان القرية هم الذين يستخدمونه. هذا الفضاء المغلق والضيق يتكون من سطح أفقي (القارعة) وسطحين جانبيين (واجهات المنازل) أو جدرانها الجانبية، ويختلف شكله من مقطع إلى آخر حيث يتشكل من تتابع غير منتظم لالتواءات، مفترقات، انحدارات، ومدرجات... الخ.

أ-3 المسالك بدون منفذ (L'Impasse): في بعض المناطق يعرف بـ (أزبوق). من الناحية المورفولوجية هو امتداد للرقاق فهو فضاء ضيق ومغلق، الدور الذي يلعبه ضمن البنية المجالية للقرية هو يربط تجمعات المساكن التي ليس لها اتصال مباشر بالرقاق.

أ-4 أسقيف (Asqif): هو المكان الفاصل بين خارج المنزل أو الحارة ودخله حيث يتوجب على الزائر التوقف عنده قبل أن يُسمح له بالدخول إلى الحارة، معماريا يتخذ أسقيف عدة أشكال، ويلعب دور المدخل الرئيسي للحارة (ثابورث أوفراق) على جانبيه نجد مقاعد مبنية خصيصا للانتظار أو للاستراحة.

أ-5 الحارة (El'Hara): تمثل نهاية المسار الذي بدأناه انطلاقا من ثاجماث، فبتجاوز أسقيف نكون قد دخلنا إلى الحارة الدائرة الخاصة بالعائلة الموسعة، تتميز الحارة عادة ببنية ثنائية، حيث تضم فضاءين أحدهما مغطى والآخر مبنى ومحدد لكن غير مغطى (ساحة أو أفراث). من الناحية الاجتماعية الحارة تعني العائلة أو مجموعة من الأسر التي تقطن هذا المسكن.

أ-6 أحام (Axxam): أو الوحدة السكنية. عبر مختلف أجزاء منطقة القبائل، المنزل التقليدي يتميز ببساطة كبيرة حيث يتشكل من غرفة واحدة مستطيلة الشكل³⁴ تأوي الإنسان والحيوان معا لكن كلا في فضاء خاص به و هو عادة ما ينجز بالحجر الجاف

33 - في بعض القرى نجد إضافة إلى هذه المرافق الطاحونة و/ أو معصرة الزيتون ومقام لولي صالح.

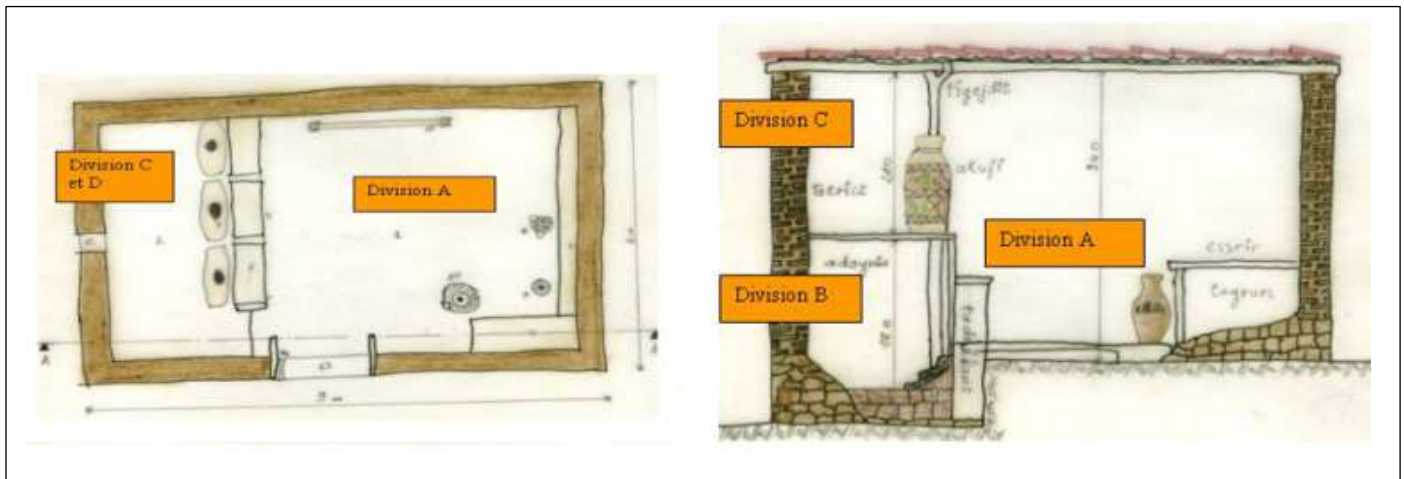
34 نادرا ما تكون مربعة الشكل.

(**Pierre sèche**) أو بالحجر و الملاط المصنوع بالتراب والتبن³⁵ يغطي المسكن بسقف عادة ما يتكون من هيكل خشبي ومجموعة من الطبقات العازلة هي طبقة القصب أو الديس، طبقة من التراب و أخيرا طبقة من القرميد المصنوع محليا. الهيكل الخشبي يتركز على الجدران الجانبية للمبنى، الأبعاد المتوسطة للمنزل القبائلي هي 06 أمتار في الطول و 03 أمتار في كل الارتفاع والعرض، معماريا أخام يتميز ببنية ثنائية أفقيا وعموديا، أي أنه في المجموع ينقسم إلى ثلاثة فضاءات هي:

- ثاقعت: تسمى في بعض المناطق أقونس (**Agunse**) أو ثغرغرت وتشغل ثلثي مساحة أخام وهي مخصصة للإنسان وتشكل المسرح الذي تمارس فيه الكثير من النشاطات اليومية.
- أدينين: أو الإسطل المخصص للحيوانات، يحتل الثلث المتبقي من مساحة أخام ويقع في الجانب المقابل لثاقعت وعادة ما يكون منخفض قليلا بالنسبة إلى مستوى هذه الأخيرة.
- ثاعريشت: فضاء يقع فوق ما يسمى أدينين أبعاده الأفقية مساوية لأبعاد هذا الأخير، بينما يكون ارتفاعه أقل، تستعمل ثاعريشت لتخزين المتونة، الأغطية الزائدة عن الحاجة وكذا الأشياء الثمينة، في أحد جدرانها الجانبية نجد فتحة صغيرة (**Lucarne**) للتهوية والإضاءة. انظر الوثيقتين 04 و 05.

للعلم فإن جل المستوطنات البشرية خلال فترة التواجد التركي ذات طابع محلي تقليدي وليس هنالك ما يشير إلى استقرار أي مجموعة بشرية أخرى في المنطقة بنمط معماري آخر.

الوثيقة 04: مخطط أفقي وعمودي للمنزل القبائلي التقليدي

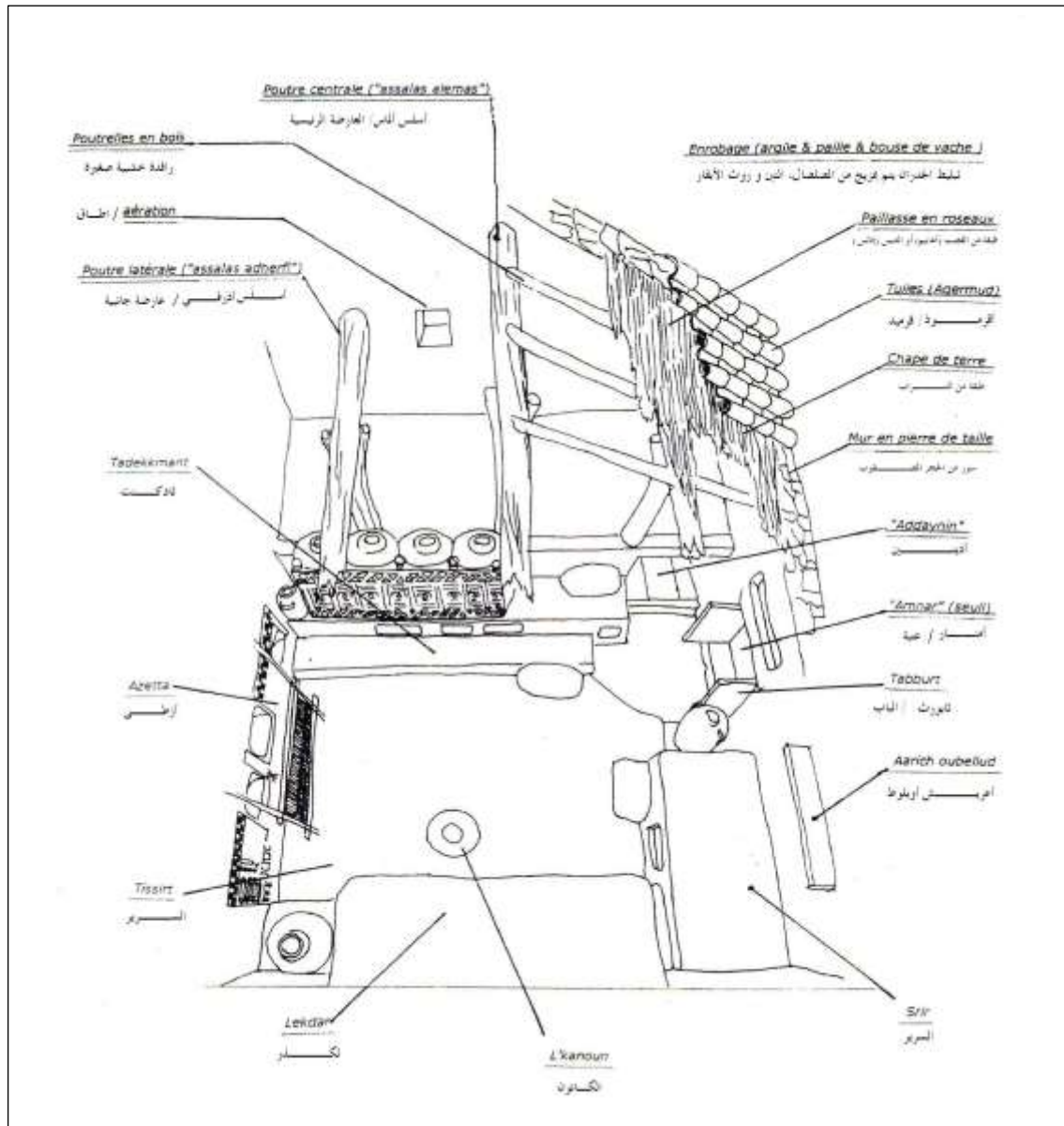


المصدر : (Zidmal Nadia, 2012.p-p : 18-19)³⁶

³⁵ بعض الجدران الداخلية يتم انجازها باستعمال آجر من التراب والتبن (**Le pisé**)

³⁶ Zidmal Nadia, Les ambiances de la maison kabyle traditionnelle, Les révélations des textes et des formes, mémoire de magister, Option : Architecture, Forme, Ambiances et Développement Durable, Université Mohamed Khider – Biskra, 2012, p-p : 18-19.

الوثيقة 05: رسم توضيحي لمكونات المسكن التقليدي القبائلي أخام.



المصدر: (Abouda, 1985, p 06)³⁷

وبعد أن تعرفنا على أهم مكونات القرية التقليدية القبائلية نتقل للإعطاء صورة موجزة عن مكونات وخصائص الحضائر الإسلامية التي نشأت في ضل تعاليم الإسلام وهذا من خلال مرجعين أساسيين حول هذا الموضوع هما:

- كتاب إبراهيم بن يوسف الموسوم بعنوان "إشكالية العمران و المشروع الإسلامي" ³⁸
- كتاب خلف الله بوجمعة الموسوم بعنوان " المدينة الإسلامية بين الوحدة و التنوع" ³⁹

³⁷ Abouda. Mohand, Axxam, maison kabyle et fréquences Murales, Paris : 1985, P.06

³⁸ بن يوسف إبراهيم، إشكالية العمران و المشروع الإسلامي، مصبعة أبوداود، الجزائر، 1992، 169 ص.

³⁹ خلف الله بوجمعة، المدينة الإسلامية بين الوحدة والتنوع، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، 2007، 159 ص.

2.1.3 خصائص العمارة الإسلامية وتعاليم الإسلام في العمارة والعمران.

حسب المؤلفين السابقين العمران الاسلامي تبلور مع البعثة المحمدية حيث مر بمرحلة تأسيسية في المدينة المنورة ثم تطور تدريجيا مع مرور الزمن واتساع حجم ورقة الدولة الإسلامية وبعد ذلك جاءت مرحلة تفكك الدولة المركزية وبروز دول متعددة مستقلة حسب تعدد الأقاليم ونمت بذلك حركة عمرانية مرتبطة بهذه الظاهرة⁴⁰. وقد تطرق المؤلفان السابقان وغيرهما إلى كل من خطة التنظيم المادي للمدينة والقرية الإسلامية وتكويناتها المعمارية والمنشآت الاجتماعية والمرافق العامة كما تطرقا إلى السمات والخصائص العامة للمدينة الإسلامية. فيما يلي سنلخص أهمها.

أ - **خطة التنظيم المادي للمدينة الإسلامية:** كغيره في كثير من الحضارات الأخرى يخضع تخطيط المدن الإسلامية للقواعد والمبادئ للنصوص التأسيسية التي قامت عليها الحضارة الإسلامية والمتمثلة في القرآن والسنة النبوية وما أجمع عليه علماء المسلمين ويعكس هذا التخطيط المادي المحاور والمبادئ الفكرية أو الدينية التي وردت في هذه النصوص. وتتكون الخطة العامة للمدينة العناصر التالية:

- **النواة الأساسية:** يضم الإدارة والمصالح العمومية المختلفة (المسجد، دار القضاء، دار الامارة، المدارس... إلخ). وتؤول كل الطرق الرئيسية والثانوية إلى هذه النواة التي لها دور تجميعي وتوزيعي مجاليا ووظيفيا على حد قول خلف الله بوجمعة⁴¹.

- **لدائرة المحيطة أو الخطط:** حسب بوجمعة خلف الله تضم الاحياء السكنية التي عادة ما تنضم حسب تقسيم قبلي محكم وترتبط فيما بينها من جهة ومع المركز من جهة أخرى بشبكة طرق رئيسية وثانوية ملتحمة بها. و حسب نفس المصدر مع مرور الزمن ظهر في الخطط بعض المرافق المكمل للمرافق الرئيسية مثل الحمامات و المدارس و غيرها⁴².

- **الحزام:** الذي يضم أماكن العمل من ورشات ومحال تجارية وأسواق.

- **التحصين:** ويتمثل في سور يحيط بالمدينة من جميع الجهات ويكون مضاعفا في بعض الحالات و/أو مزودا بقلاع في بعض المدن.

ب- التكوينات المعمارية والمنشآت الاجتماعية والمرافق العامة للمدينة الإسلامية:

ويقصد بها المباني الرئيسية والفراغات الأساسية التي تشكل الهيكل المادي للمدينة. ذكر إبراهيم بن يوسف⁴³ استنادا إلى عدة

مصادر تاريخية مكونات عدة للمدينة الإسلامية. وهي باختصار كالتالي:

- **المسجد:** هو أول مبني في المدينة ويحتل موقع مركزي ويتم تقسيم أراضي المدينة بالرجوع إلى موقعه كمعلم أساسي للتخطيط العام للمدينة.

- **الخطة:** وهي الوحدة العمرانية⁴⁴ وبمجموع هذه الوحدات تتشكل المدينة. والخطة هي وحدة من المدينة تجتمع فيها المرافق الضرورية بجانب المساكن وتسكنها مجموعة عائلية أو قبلية واحدة. وتتكون من مجموع دور المجموعة الواحدة التي تلتف حول مركز الخطة وهو غالبا ما يكون فضاء غير مبني في معظمه. يستغل جزء منه لبعض المنشآت الخاصة بالخطة مثل المصلى والمدفن ومحطة الإبل (...). وتتكون

⁴⁰ بن يوسف إبراهيم، نفس المرجع السابق، ص 73.

⁴¹ خلف الله بوجمعة، المدينة الإسلامية بين الوحدة والتنوع، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، 2007، ص 112.

⁴² خلف الله بوجمعة، نفس المرجع السابق، ص 112.

⁴³ بن يوسف إبراهيم، نفس المرجع السابق، ص 73.

⁴⁴ أو الحي أو المجاورة السكنية بالمفهوم الحديث

الخطة بدورها من وحدات جوار وهي الدور التي تلتف حول درب مشترك. وهذه الدور تلتف حول مركزها وهو فناء الدار فتكون بذلك صور مركزية متدرجة سلمياً من الخلية الأولى الدار إلى الخطة إلى المدينة.

- المسالك والطرق: وهي العنصر الثالث الرئيسي في تشكيل هيكل المدينة فهو بمثابة شريان المدينة يوصل بين قلبها وبقيّة أجزاء جسدّها فينظم بذلك حركتها وتنقسم الطرق حسب وظيفتها وأهميتها إلى ثلاث أنواع:

- الشوارع الرئيسية: هي الطرق رئيسية أهم عقدها تربط مركز المدينة بأبوابها كما أن امتدادها خارج المدينة يربط المدينة بالمناطق المجاورة.

- الطرق الفرعية: وهي متوسطة الحجم والنشاط ودورها يتمثل في نقل حركة السكان من الشوارع الرئيسية إلى الدروب والأزقة غير نافذة وهذه الأخيرة تمثل المستوى الثالث من أنواع الطرق.

- الحصون والاسوار: وهي ذات طبيعة دفاعية وعسكرية.

- الرحبات والميادين: وهي تلك الفراغات غير المبنية ذات الوظائف المتعددة والمتنوعة حسب المناسبات. وقد أقيمت الأسواق في هذه الميادين وكذا الشعائر الدينية مثل مصلى العيد واستعملت لاستعراضات الجند واللقاءات الثقافية.⁴⁵

- المنشآت والمرافق الاجتماعية والمرافق العامة وتنقسم إلى:

- المرافق الضرورية: مثل الابار التي تزود السكان المياه الصالحة للشرب وكذلك دورات المياه العمومية وقنوات الصرف المتعلقة بها.

- المنشآت الاقتصادية: وتمثلت أساساً في السوق التي تزود المدينة بالمواد والسلع المختلفة.

- المنشآت الثقافية التربوية: وهي المدرسة التي قد تكون جزءاً من المسجد أو مستقلة عنه وقد تكون المسجد ذاته.

- المنشآت القضائية: وهي دار القضاء والدور التي يسجن فيها من حكم عليهم بذلك.

- المنشآت السياسية والإدارية وهي المسجد ودار الإمارة

- المؤسسات الحضريّة: مثل ولاية الحسبة التي تسهر على مراقبة السوق ورعاية الأحوال الاقتصادية والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف ورعاية

كل المرافق العامة وتولي صيانتها. واستحدثت كذلك ولاية الشرطة التي أنيطت إليها مهمة حفظ الأمن. وسن الرسول عليه الصلاة والسلام

ولاية الوقف وهي ذات طابع عقاري ومالي تسهر على تسيير ما حبسه المسلمون للصالح العام من أملاك وأراضي. كما كان بيت المال

مؤسسة مالية تابعة للمؤسسات السياسية والإدارية.⁴⁶

ت- السمات والخصائص المعمارية والعمرانية للمدينة الإسلامية.

أفضت اجتهادات وتجارب تطبيق تعاليم الدين الإسلامي في العمران إلى توحيد الملامح العامة للمدن الإسلامية على اختلاف أزمنة

أماكن بنائها، وتتمثل أهم هذه الملامح في مبادئ⁴⁷ محددة تعطي المدينة بنيتها ومظهرها الخارجي ومميزاتها الوظيفية. وتتمثل هذه المبادئ

فيما يلي:

⁴⁵ بن يوسف إبراهيم، المرجع السابق، ص - ص: 85

⁴⁶ بن يوسف إبراهيم، المرجع السابق، ص - ص: 90-93.

⁴⁷ أورد هذه المبادئ كل من إبراهيم بن يوسف في المرجع السابق من الصفحة 93 إلى الصفحة 108 وخلف الله بوجعة في المصدر السابق من الصفحة 112 إلى الصفحة 120.

- العضوية أو الترابط العضوي: حيث تتميز معظم المدن الإسلامية بالترابط بين مختلف أجزائها وذلك في نسق متجانس ومتكامل الأجزاء وهو نسق يعبر عن وظائف المكونات المعمارية والعمرانية للمدينة المتكونة من المركز والخطط وشبكة الطرق التي تربط بينها والمركز إضافة إلى التحصينات المحيطة بها.

- الوظيفية أو التدرج الوظيفي: حيث يقوم المركز المكون من المسجد الجامع و دار الامارة وغيره من المؤسسات بالوظيفة الدينية و الإدارية و المصالح ذات الطابع الجماعي أما الخطط فهي تقوم بوظيفة السكن والإقامة، وتقوم المسالك بوظيفة الاتصال و يقوم المحيط وهو ما جاور المدينة حيث تكون الأسواق و المجالات الصناعية و بعدها المزارع بوظيفة الشغل والعمل⁴⁸.

- الانسجام القياسي: وهذا من خلال التكامل بين النسق الكلي وبين أجزائه أو الأنساق الجزئية المكونة له وذلك وفق تدرج محكم بين وحدات ثلاث هي المسكن، وهي الوحدة الأولية والخطوة المشكلة من المساكن، وهي الوحدة الثانوية، والمدينة الوحدة الكلية المشكلة من كل هذه المكونات. قد بنيت المدينة الإسلامية بانسجام قياسي متدرج من المسكن المكون إطار مبني وفراغ يتمثل في الفناء أو الحوش إلى الخطوة المتكونة من سكنات متجاورة منتظمة مع فراغ يسمى الرحبة، ثم المدينة المتكونة من مجموع الخطط وفراغ واسع يضم المسجد والمؤسسات الإدارية والسياسية الأخرى. وهذا الانسجام القياسي يظهر كذلك في شبكة الطرق التي تنسجم قياساتها مع الوظائف التي تؤديها وحجم التدفق الذي يمر من خلالها.

- المركزية: وهي مبدأ تقوم عليها بنية المدينة الإسلامية وهو يحتل أهمية كبيرة في النظام الوظيفي والحركي والانسجام التركيبي للمدينة فهو القلب النابض ومحرك النشاط الحضري ومهيكل للفراغات وهو فراغ توزيع واستقطاب وهو الفراغ الموحد والجامع. وتتنوع الفراغات حسب حجمها الذي يتباين وفق الدرج الهرمي من فراغ وسط المدينة إلى الرحبة فراغ الخطوة إلى الفناء فراغ الدار⁴⁹.

- مفهوم الحرم: تنبني على هذا المفهوم جميع أركان النسق المعماري والعمراني للمدينة الإسلامية وعلى حد قول إبراهيم بن يوسف تغشى على كل فراغ روح يستوحى من هذه الروح حرمة تصان ولا تداس تستوجب الوقار والاحترام. فللمسجد حرمة، وللطريق حرمة ولل سوق حرمة وللدار حرمتها. يتجسد مبدأ الحرم من خلال إنشاء حدود بين الفراغات المختلفة مثل الجدران الخارجية واتخاذ الستار والحجاب على النوافذ والأبواب المطللة على الخارج إضافة إلى اتخاذ فواصل وروبط بين مختلف الفضاءات تسمح بتنظيم الخروج والدخول من وإلى الفضاءات بما يقتضيه مفهوم الحرم.

3.1.3 تجليات مبادئ ومكونات العمارة الإسلامية في القرية القبائلية التقليدية بمنطقة بني ورتلان:

يتبين مما سبق عرضه أن القرية القبائلية جسدت الكثير من التعاليم والمبادئ الدينية في العمارة والعمران. كما ضمت عدة مكونات (بنايات ومرافق) نجدها في المدينة الإسلامية. ويلخص الجدول رقم 01 والجدول رقم 02. التقاطعات الموجودة بين المدينة الإسلامية والقرية القبائلية في منطقة بني ورتلان وغيرها من المناطق.

⁴⁸ بن يوسف، المرجع السابق، ص 94

⁴⁹ بن يوسف، المرجع السابق، ص 96.

الجدول رقم 01: تجسد مبادئ العمارة الإسلامية في القرية القبائلية التقليدية بمنطقة بني ورثيلان

مبادئ العمارة الإسلامية	تجسد المبادئ في القرية القبائلية بمنطقة بني ورثيلان
العضوية أو الترتيب العضوي	متجسد
الوظيفية أو التدرج الوظيفي	متجسد
الانسجام القياسي	متجسد
المركزية	متجسد في معظم القرى
مفهوم الحرمه	متجسد

المصدر: الباحث، 2023، اعتماداً على المقارنة بين عمارة المدينة الإسلامية وعمارة القرية القبائلية التقليدية

الجدول رقم 02: حضور مكونات المدينة الإسلامية في القرية القبائلية التقليدية بمنطقة بني ورثيلان

مكونات المدينة الإسلامية	وجود مكونات المدينة الإسلامية في القرية القبائلية بمنطقة بني ورثيلان	ملاحظات
المركز المتكون من فراغ يضم المسجد الجامع و المرافق العامة الأخرى (سياسية وإدارية)	موجود خصوصاً في القرى المركزية	يوجد في معظم القرى التقليدية فضاء يسمى ثاجمعت وهو مخصص لاجتماع مجلس القرية
الخطط أو الاحياء السكنية	موجودة مع كونها أقل من حيث المساحة والعدد	
شبكة الطرقات (الرئيسية الثانوية والفرعية)	موجودة مع كونها أقل حجماً	
الرحبات و الميادين	عادة ما نجد في كل قرية رحبة	
الحصن أو الجدار المحيط بالمدينة	القرية عادة ما تبني في قمة جبل وهو ما يعتبر تحصين لها غير أنها في الغالب غير محاطة بجدران دفاعية	
الآبار و العيون	معظم القرى تظم آبار و عيون	
الأسواق و حقول زراعة خارج المدينة	الأسواق و حقول زراعة خارج القرى	

المصدر: الباحث، 2023، اعتماداً على المقارنة بين عمارة المدينة الإسلامية وعمارة القرية القبائلية التقليدية

2-3 أثر الدين الإسلامي على المجتمع والعمران في منطقة بني ورثيلان خلال فترة الاستعمار:

بقدم الاحتيال الفرنسي تعرضت المنطقة إلى الكثير من التحولات العميقة حيث شكلت ثورة المقراني بداية مفصلية لتلك التحولات أين تعرض السكان الذين شاركوا فيها إلى سلب أراضيهم، وكما سبق وأن أشرنا سعت الإدارة الفرنسية إلى تقنين تحويل أراضي العرش التي ينتمي عليها النظام الريفي التقليدي إلى ملكيات خاصة بحيث يسهل فيما بعد شرائها من قبل المعمرين. ومن جهة أخرى سعت إدارة الاحتلال إلى بسط نفوذها في المنطقة من خلال شق الطريق الذي يربط مدينة بوقاعة بالمنطقة ثم شق المسالك نحو مختلف القرى. وفي الجانب الثقافي حاول بشتى السبل التحكم في نشاط المؤسسات الدينية التعليمية بما يتناسب مع مصالحها الاستعمارية. وعلى العموم على المستوى الاجتماعي ضل المجتمع الورثيلاني متمسكاً بالدين الإسلامي في صبغته التقليدية رغم جهود الاحتلال طمس هويته. وبظهور حركة الإصلاح الدينية بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ثلاثينات القرن الماضي تبنيه الكثير من علماء ومشايخ المنطقة وانظموا

إلى عضويتها وأسسوا فروعاً لمدارسها في كل من قرى مزين وألموثن وبنى عشايش وقد شكل نشاط هذه المدارس مظهراً من مظاهر مقاومة الاستعمار.

من الناحية المعمارية نظراً للطبيعة الجبلية للمنطقة لم تسع الإدارة الاستعمارية لإقامة مستوطنات كبيرة فيها عدا بناء بعض الشكنات وأبراج المراقبة والمدارس. وبالتالي ضلت القرية التقليدية النمط العمراني السائد في المنطقة مع بداية بعض التحولات من داخلها حيث شرع بعض المغتربين الذين يعودون من المدن الفرنسية أو الجزائرية في توسيع المساكن التقليدية مع إدخال بعض مظاهر السكن الأوروبي الحديث.

3-3 أثر الدين الإسلامي على المجتمع والعمران بمنطقة بني ورثيلان خلال فترة ما بعد الاستقلال:

من الاستقلال إلى يومنا هذا عرفت المنطقة الكثير من التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تجلت في تكوينها المجالي عرف دور الدين كمكون أساسي في ثقافة المنطقة إلى العديد من التطورات فمن ناحية تأثير على المجتمع أصبح دور الدين يكتسي في مجال الأحوال الشخصية طابعاً قانونياً أما من ناحية الشعائر فقد ظل كما كان هو السائد مع تباين درجات التدين بين أفراد المجتمع من الناحية العمرانية تطورت عمارة المساجد حيث تم توسيع أو ترميم العديد من المساجد التقليدية كما تم بناء الكثير من المساجد الجديدة⁵⁰.

أما فيما يتعلق عمران القرى فقد شهد توسعات وتحولات التي أفضت إلى إدخال الكثير من سمات العمارة والعمران الحديث مثل البناء المنفتح على الخارج واستخدام التقنيات و المواد المصنعة. وفقدت القرية التقليدية شيئاً فشيئاً محتواها السكاني لينقل معظم السكان إلى مساكن جديدة خارجها. كما عرفت المنطقة استحداث العمل بمخطط التهيئة والتعمير ومخططات شغل الأراضي التي تعتمد مقاربات مستفاد من المنهجية الحديثة في التخطيط العمراني مما عمق الهوة بين القرية التقليدية والتوسعات العمرانية الحديثة.

4- علاقة الدين بالمجتمع والعمران من خلال حالة قرية منادس:

تمثل قرية منادس من حيث بنيتها المجالية حالة أغلب قرى منطقة بني ورثيلان حيث عرفت توسعاً مستمراً منذ نشأتها إلى يومنا هذا من دون أن تتحول إلى تجمع عمراني مركزي مثل بعض القرى ولم تفقد محتواها البشري لتتحول إلى أطلال مثل بعض القرى الأخرى. فيما يلي سنقدم وصفاً مختصراً للقرية ولبنيتها المجالية تمهيداً للنظر في علاقة الدين بالمجتمع والعمران فيها.

4-1 التعريف بقرية منادس وبنيتها المجالية:

قرية "منادس" تجمع ثانوي يقع ضمن سلسلة من القرى هي: "العزيب" (ثاماقازث)، "بونتر"، "منادس"، "تيزي العسكر"، و"إشنبوذج" يربطها طريق بلدي معبد طوله 5.12 كم يتفرع عن الطريق الوطني رقم 74 وهي تابعة لبلدية عين لقراج إحدى البلديات الأربع لدائرة بني ورثيلان. تبعد عن مركز الدائرة بحوالي 10.8 كم بينما تبعد عن مركز البلدية بحوالي 4.7 كم. تقع على الجانب الجنوبي الشرقي لجبل بوموسي (1240 متر) حيث تحتل موضعاً مستوي نسبياً يتميز بوفرة المياه وخصوبة التربة. كانت النواة الأولى لهذه القرية عبارة عن مجموعة أكواخ استعملت من طرف الفلاحين كماوى ومخازن في مواسم الحصاد وجني الزيتون وغيرها من المحاصيل. يقطن هؤلاء الفلاحين قرى تقع على الجانب المقابل من جبل بوموسي (قرى "أخريب"، و"زاكو"، و"إري الكاف" وغيرها). أما عن تسمية قرية "منادس" فالرواية السائدة أنها نشأت من العبارة المحلية (أمان زفس) أي الماء يوجد فيها. انظر الوثيقتين 04 و 05.

جبل بوموسي

دشرة تيزي لعسكر

دشرة حيلة

دشرة بونتر

دشرة تيت بوقريب

قرية ملس

قرية لعريب

قرية ملس

الصحع العمراني
الفسراج

الطريق الوطني 74

طريق بلدي

منطقة تاسولت
لديت الفلاحية

Image © 2016 CNES / Astrium

Google earth

711 m

بصورة إجمالية تميز في البنية المجالية لقرية منادس العناصر التالية: الإطار المبنى، وشبكة الطرقات، والأراضي الزراعية، والأراضي غير المزروعة (البور، الأعراش والأدغال)، ومصادر الماء انظر الوثيقة 05. فيما يلي يأتي فيما يلي يأتى وصف، تكوين ووظيفة كل منها.

الوثيقة 05: صورة ملتقطة بالصّاتل لقرية منادس



المصدر: قولل إرث 2016.

أ - الإطار المبني:

يتشكل من مجموع حوالي 110 بناية، 101 منها ذات استغلال سكني أو مزدوج (سكني وخدمي) و 9 منها ذات استغلال خدماتي بحت. ويتميز إلى: نسيج عمراني قديم متراس، نسيج حديث انشطاري أو خطي بالإضافة إلى النسيج الانتقالي ذو الصفات المشتركة من الأول والثاني.

النسيج العمراني القديم يضم 16 حارة متجاورة (وهي مجموعة من المساكن التقليدية "إخامن" تشترك في فناء واحد ولها مدخل رئيسي وتقطنها عائلة موسعة) ومسجد بالإضافة إلى 04 مساكن منعزلة وهو ما يعادل 19.09 % من مجموع مباني القرية. النسيج العمراني الانتقالي يجاور النسيج الأول من جهة الطريق البلدي ويتميز بتداخل الصفات القديمة والحديثة من حيث الشكل ومواد البناء المستعملة. فمن الجانب المورفولوجي نجد نموذج الحارة هو الغالب مع بعض التغيرات في أبعادها المختلفة بينما من الناحية الإنشائية لاحظنا استخدام جزئي لبعض المواد الحديثة كالخرسانة، والخرسانة المسلحة، والقرميد الحديث، والآجر. يضم هذا النسيج العمراني 07 مساكن، مدرسة ومتجر وهو ما يعادل (6.36%) من مجموع مباني القرية. والجديد هنا هو إمكانية الولوج إليه بواسطة العربات الميكانيكية المتوسطة والصغيرة الحجم.

النسيج العمراني الحديث يضم 82 بناية وهو ما يعادل 74.54 % من مجموع مباني القرية، كلها جلها ذات طابقين وخاصة المساكن المبنية على جانبي الطريق البلدي. المواد الإنشائية المستعملة حديثة. المباني تتموضع أساساً على شكل خطي على طول الطريق البلدي الذي تتفرع عنه 7 مسالك ثانوية تربطه بمجموعات متفاوتة العدد من المنازل؛ إلى جانب المباني السكنية نجد المرافق العمومية التالية: المدرسة الابتدائية، والمسجد، والمستوصف، والفرع البلدي، ومتجرين، والمقبرة.

ب- شبكة الطرقات:

تتشكل شبكة الطرقات أساساً من الطريق البلدي والمسالك والدروب الفرعية وهي: الطريق البلدي: معبد بشكل غير مكتمل يتراوح عرضه ما بين 06 إلى 08 أمتار يربط قرية منادس وعدد من القرى الأخرى بالطريق الوطني رقم 74.

المسالك: وهي طرق ثانوية تستخدم من طرف الراجلين والسيارات على حد سواء، وغير معبدة وتتفرع أحياناً إلى دروب. الدروب: تصلح فقط لمرور الراجلين والحيوانات تربط القرية بالأراضي الزراعية المجاورة، منها ما هو طريق تقليدي قديم ومنها حديثة النشأة.

ت- الأراضي الزراعية:

يمكن تصنيفها حسب الاستغلال إلى ستة أصناف وهي: البساتين منها بساتين الخضر وبساتين الأشجار المثمرة (التين والزيتون)، وحقول القمح والشعير، والأراضي ذات الاستغلال الثنائي (أشجار مثمرة مع زراعة الحبوب أو أشجار مثمرة مع زراعة الخضر) بالإضافة إلى الأراضي البور.

ث. الأحراش والأدغال:

يطلق عليها اسم الغابة عند السكان المحليين يمارس فيها نشاط كان إلى وقت قريب ذو أهمية محورية في الحياة الاقتصادية للقرويين يتمثل في الرعي. كما شكلت إلى وقت ليس ببعيد مصدراً للحطب المستعمل للتدفئة المنزلية والمستعمل في مختلف النشاطات كالزراعة والبناء، وقد أُستُصلحت مساحات هامة من هذه الأراضي لكنها أُهملت لأنها ضئيلة المردودية.

ج- مصادر المياه:

تعد من المقومات الأساسية لاستقرار سكان القرية إذ أنها تضم حوالي من 57 بئر بالإضافة إلى عينين متوسط التدفق السنوي الواحدة منهما حوالي 1,5 ل/الثانية، إضافة إلى بئر ارتوازية أنجزت في جوان 2003 وشرع في استغلالها بعد استكمال إنجاز وتجهيز الخزان المخصص لتزويد القرية بالماء.

قرية منادس بتركيبتها الحالية البسيطة نسبياً تُجسد حالة القسم الأكبر من قرى منطقة بني ورتلان، بحيث بدأ نمط البناء الشبه حضري (الخطي و/أو الانشطاري) يحل محل النسيج القديم الذي يخضع الآن إلى عدّة تحولات وتغييرات من طرف السكان (توسيع، ترميم، هدم كلي، إعادة بناء) تهدف إلى تكييفه مع متطلبات الحاضر.

2.4 أثر الدين على تكوين واستمرار المجتمع القروي في قرية منادس:

استنادا إلى الروايات الشفوية يعود أول استقرار دائم في قرية منادس إلى نهاية القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين حيث بنيت النواة الأولى للقرية وفق النمط التقليدي الذي تم وصفه سابقا. المجتمع القروي الذي يقطن القرية كان يتكون من ستة عوائل يعود أصلها إلى القرى الأم في عرش غبولة الواقعة في الجانب المقابل لجبل بوموسي. ومع اختلاف درجة التزامهم يدين معظم سكان القرية بالدين الإسلامي حيث يظهر ذلك من خلال ممارستهم للشعائر والعبادات الإسلامية المختلفة كالصلاة والصيام والزكاة والحج كما يلتزمون معظم تعاليم الدين الإسلامي في الزواج والميراث⁵¹ المعاملات كالبيع والشراء غير ذلك.

وبحكم كون القرية حديثة النشأة نسبيا فإنها ضلت تابعة إلى القرى الأم في بعض مظاهر الحياة الاجتماعية وخصوصا قرية أخرب مركز عرش غبولة، حيث كان سكان القرية يلجؤون عند نشوب الخلافات بينهم إلى عقلاء تلك القرى كما ظلوا يدفنون موتاهم في مقابرها. وحدث أن استقلوا عنها شيئا فشيئا. وكذلك بالنسبة لتأطير الحياة الدينية فقد ظلت قرية منادس تابعة لتلك القرى حيث كانوا يقصدونها طلبا للفتوى والمشورة الفقهية من أئمتها. وعند الضرورة يلجؤون إلى فقهاء وعلماء أرفع شئنا من أبناء منطقة بني ورتلان وخير مثال على ذلك: استقدام الشيخ يحيى حمودي الثاني⁵² من قرية أولموثن للفصل في قسمة مياه العين الرئيسة بين سكان القرية حيث امتثل سكان القرية لما حكم به لعشرات السنوات⁵³. كما ساهم الدين الإسلامي في صياغة وصقل منظومة الاخلاق لسكان القرية، حيث يعرف عموم السكان بالتزام الاخلاق الإيجابية كالتكافل والتعااض والأمانة الذود عن الاعراض وحسن الضيافة... إلخ. كل ما سبق يثبت الدور المحوري للدين الإسلامي تكوين واستمرار وتنظيم المجتمع والحياة الاجتماعية في القرية.

ونجد إلى جانب الدين الإسلامي مجموعة من الأعراف التي يتمسك بها سكان القرية مثل ما يعرف بالوزيعة والمتمثلة في ذبح البقر لغرض توزيع لحمه بالتساوي على سكان القرية وهذا في بعض المناسبات الدينية كالمولد النبوي وعيد الفطر والنصف من شعبان... إلخ. ومن الأعراف التي يمارسها السكان الاحتفال برأس السنة الأمازيغية والخروج للتنزه والاحتفال في أول يوم لشهر الربيع في التقويم الأمازيغي... إلخ. وقد يلاحظ لدى بعض السكان آثار لبعض العقائد الوثنية حيث نجد من لا يزال يعتقد بوجود لروح حارسة المنزل (أعساس واخام) ومن يعلق حافر الحصان على باب منزله درئا للعين والحسد.

لقد ظل الوضع الذي وصفناه في الفقرات الثلاث السابقة سائدا في القرية تقريبا منذ نشأة القرية إلى غاية نهاية ثمانيات القرن الماضي بحكم عزلتها النسبية وبحكم الاتصال المحدود لسكانها مع العالم الحضري وبعد تلك الفترة طرأت الكثير من التحولات التي طالت علاقة السكان بالتدين والتقاليد الموروثة عن الاسلاف فعلى سبيل المثال بعد توسع القرية تم بناء مسجد جديد في موقع غير موقع المسجد الأول وأصبحت القرية تتبع في تسيير مختلف مرافقها إلى البلدية بعد أن كانت مسيرة من قبل مجلس عقلاء القرية (ثاجمعت). وساهمت من هجرة الرجال من سكان القرية للعمل في المدن (خارج وداخل الوطن) في تعديل معتقداتهم وعاداتهم وهو ما تترجم في سلوكياتهم وطريقة عيشهم (الملبس والمأكل والمسكن). كما تغيرت إلى حد ما علاقة سكان القرية بالدين نتيجة لنفس العوامل وعوامل أخرى كثيرة مثل زيادة نسبة المتدربين والتوفر التدريجي لوسائل الاعلام. وبالنسبة إلى الأعراف والتقاليد فمنها ما ترك جانبا أو انحصر كثيرا ومنها ما لا يزال قائما مثل الاحتفال برأس السنة الأمازيغية وأول الربيع.

3.4 الدين والبنية المجالية لقرية منادس:

⁵¹ باستثناء ميراث المرأة حيث جرت العادة في المنطقة على عدم تخصيص حق من الميراث للبنات في غالب الأحيان كما هو الحال في الكثير من قرى منطقة القبائل.

⁵² عاش الامام يحيى حمودي الثاني ما بين 1883 و1972 وهو عالم مصلح من فصحاء اللغة الأمازيغية، يصلح بين الناس ويحل مشاكلهم ونزاعاتهم وهو من الرواد الأوائل في مجلس إدارة جمعية العلماء المسلمين عند تأسيسها سنة 1931.

⁵³ حسب رواية شفوية للسيد خيريات فرحات، أدلي بها سنة 2015م.

في أبحاث سابقة حاولنا⁵⁴ دراسة عملية تشكل وتحول البنية المجالية لقرية مناس وتوضيح العوامل التي ساهمت في تلك العملية واتضح لنا أن لكل من العوامل الاقتصادية والسياسة والثقافية دورها في تلك العملية. فالعامل الاقتصادي تأثيره يتجلى خصوصاً في تأثير رؤوس الأموال الذي يتم جلبه من الحواضر من قبل السكان الذين يهاجرون ويعدون برؤوس أموال يستثمرونها في القرية على شكل مساكن جديدة بعدة طوابق، يخصص الطابق الأرضي عادة كمحلات تجارية أو ورشات. كما يظهر العامل السياسي مثلاً في دور الدور التنموي الذي لعبته الدولة في القرية منذ الاستقلال إلى يومنا هذا حيث استفادت القرية إلى حد ما من سياساتها التنموية القطاعية من خلال تشجير بعض الأراضي نتيجة للثورة الزراعية ومن خلال بناء المرافق العمومية (المدرسة، المصححة، الفرع الإداري، تعبيد الطريق البلدي...). واستفادت سنة 2006 من مشروع للتنمية الريفية المدججة. أما بالنسبة للعامل الثقافي فإن تأثيره يتجلى من خلال التحولات التي طرأت لدى الناس نتيجة لزيادة الاحتكاك بالعالم الحضري وزيادة مستوى ونسبة التمدن لدى السكان إضافة إلى دور وسائل التواصل والاعلام في تشكيل الواقع الثقافي للسكان.

وقد تأثر عمران القرية بمختلف التحولات حيث تطور شيئاً من حالته التقليدية القريبة من خصائص ومكونات المدينة الإسلامية إلى حالته الحالية التي يبرز فيها الكثير من خصائص العمران الحديث. وأصبحت هيئة القرية أقرب إلى التجمعات العمرانية المبنية وفق النمط الأوروبي من حيث الشوارع ومن حيث عمارة المباني. فعلى سبيل المثال تطورت عمارة المسكن تدريجياً في القرية من الحالة التقليدية المنفتحة على الداخل والمنغلقة على الخارج إلى المسكن المنفتح كلية على الخارج، انظر مجموعة الصور في الوثيقة رقم 06.

الوثيقة رقم 06: مجموعة صور توضح تحول نمطية السكن في قرية منادس



⁵⁴ كزار، محمد أكلي. التحولات المجالية في القرى الجبلية القبائلية، حالة منطقة بني ورتلان في أقصى شمال غرب ولاية سطيف. رسالة ماجستير في العمران. جامعة منتوري بقسنطينة، كلية علوم الأرض والتهيئة العمرانية، قسم الهندسة المعمارية والعمران، 2008. 240ص.

المصدر : الباحث ، 2008⁵⁵

● خاتمة:

مما سبق يمكن نستخلص أن للدين بمختلف أشكاله تأثير على المجتمع وال عمران ومنطقة بني ورتلان تندرج في هذه القاعدة حيث تركت كل من العقائد الوثنية القديمة والديانة المسيحية واليهودية أثرها ويظهر هذا أكثر وضوحا من خلال ما تبين من أثر للدين الإسلامي في الحياة الاجتماعية والعمارة في المستوطنات البشرية بمنطقة بني ورتلان عامة وقرية منادس خاصة.

وقد سمح لنا هذا العمل بتتبع مراحل ومظاهر التدين في المنطقة وتأثير في جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة. إضافة إلى تأثير الدين على بنية القرية القبائلية المعمارية وعمارة المساكن فيها حيث تبين مدى تأثيرها بمبادئ العمارة الإسلامية من حيث الشكل والمضمون أو الهيئة والوظيفية. كما سمحت لنا تسليط الضوء على قرية مناس بالوقوف عن كتب على بعض مظاهر هذا التأثير. وقد رأينا أن تأثير الدين كأحد عناصر الثقافة قد تمازج مع عوامل أخرى مثل الأعراف وعامل الاحتكاك بالثقافة الغربية خلال الحقبة الاستعمارية وعوامل اقتصادية وسياسية أخرى.

هذا البحث على بساطته فتح لنا عدة نوافذ معرفية حيث سمح لنا بالتعرف على جوانب ثقافية محلية كنا نجهلها كما سمح لنا على استكشاف بعض جوانب الرصيد المعرفي المتعلق بفقهاء العمران الإسلامي. وسمح لنا هذا البحث بطرح تساؤلات جديدة ذات صلة بالموضوع وهي كالتالي:

- كيف تشكلت العمارة التقليدية القبائلية المحلية عبر التاريخ؟

- كون المنطقة عرفت حركة ثقافية معينة خلال الحقبة العثمانية والاستعمارية من خلال التدريس في الزوايا وإنشاء مكاتب ومن خلال الاعتناء بالمخطوطات فهذا يؤدي بنا إلى التساؤل هل وصلت المخطوطات ذات الصلة بفقهاء العمران الإسلامي إلى فقهاء المنطقة وهل استعملت كمراجع لإصدار الفتاوى وللإصدار في النزاعات المتعلقة بالبناء والعقارات؟

وتجدر الإشارة في الأخير أن هذا البحث قد اعترته الكثير من النقائص المنهجية والنقائص من حيث دقة المعلومات وترتيبها ولعل منها ما يلي:

- عدم التعرض لحالة العمران في المنطقة قبل الحقبة العثمانية الأمر الذي يمكننا في حالة استفائنا بتسليط الضوء عن نشأة العمارة التقليدية وأثر الدين فيها فعلى سبيل المثال ففي الفترة الحفصية ظهر مؤلف ابن الرامي الموسوم بـ "الإعلان بأحكام البنين" أين جمع المؤلف كل الأحكام الفقهية المتعلقة بالبنين في المذهب المالكي والتي كانت تطبق في تلك الفترة.

- تبسيط علاقة الدين بالعمران البشري مع أن الأمر الذي يتطلب تحليل مفهومي موسع يسمح بتحديد مختلف الأبعاد والمؤشرات بكلا المفهومية "الدين" و"العمران"

ويبقى النقد البناء لكل عمل من أنجع السبل للمضي قدما في تحسينها وتطويرها وهو ما نطلبه من كل مهتم ودارس لهذا العمل.

- شكر وتقدير: في الأخير أود أن أشكر كل من ساهم في هذا العمل من قريب أو من بعيد وأخص بالذكر السيد عبد الله لعريش وكزار هارون اللذان تفضلاً بقراءة وتصحيح المقال من الناحية اللغوية وأشكر جميع المشاركين في المؤتمر الدولي التاسع حول التعمير في الوطن العربي وحوض المتوسط ووادي النيل الذين ساهموا في إثراء المقال من خلال تدخلاتهم وأسئلتهم المتعلقة بموضوع البحث.